المحاضرة الحادية عشرة

١ـ المدرسة الفرنسية (التاريخية)

أ.م.د. علي مجيد البديري
جامعة البصرة / كلية الآداب

ـ بدايات التشكّل:

من بين ما أشاعته الفلسفة الوضعية ***Positivism*** في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في حقول البحث العلمي مبدأ "النص وثيقة"، ولم يكن النقد الأدبي بعيداً عن تأثير ذلك، فكان ظهور المنهج التاريخي في النقد مرتكزاً في أصوله على هذه الفلسفة، إذ عمد هيبوليت تين إلى الإفادة من حقل العلوم البايلوجية في ميدان الدراسة الإنسانية، حينما شَبَّه دراسة المحّارة لغرض معرفة الحيوان الساكن فيها، بدراسة الوثيقة (النص الأدبي) لأجل معرفة الإنسان. فدراسة العمل الأدبي لا تتم ـ كما يرى تين ـ بشكل منفصل عن الأديب الذي تحكمه ثلاثة عوامل عملت على تكوينه وتوجيهه، وهي: الجنس والبيئة والعصر. وسيكون مقدار تجلي آثار هذه العوامل في نص المبدع مقياساً يحدد قيمة هذا النص، ويبين مدى ارتباطه بها، وإحالته إليها. وقد شاع هذا المنهج وهيمن على معظم النتاجات النقدية في بدايات القرن العشرين، و نظَر بعض الباحثين إلى رواج هذا المنهج النقدي ضمن إطار التعلق العام بالواقعية.

و يمكن تأشير سنة ١٨٢٧ بداية لاستعمال مصطلح الأدب المقارن حين بدأ الفرنسي أبل ڤييمان بإلقاء محاضراته في جامعة السوربون بباريس حول علاقة الأدب الفرنسي بالآداب الأوربية الأخرى. وتلته فيما بعد محاضرات جان جاك أمبير وجوسف تكست حول علاقات الأدب الفرنسي بالآداب الأجنبية عامة .

وبعد ذلك وفي خطوة متقدمة، جسدت شعوراً مبكراً بضرورة التثاقف وأهميته، كان لكتاب مدام دي ستال (عن ألمانيا) دورٌ في الكشف عن خصوصية الأدب الألماني للقراء الفرنسيين، والدعوة إلى العناية بالآداب الأجنبية ودراستها. إلا أنها لم تتجاوز في كتابها جمع المتشابهات والموازنة بينها؛ مما جعل

تأثير هذه الخطوة محدوداً وقليل الأهمية لدى بعض الباحثين. ومن الغريب أنْ يكون كلُّ ذلك غيرَ كافٍ لنشوء الأدب المقارن، فلم تستثمر هذه التحولات النوعية في دراسة نقاط الالتقاء بين هذه الآداب، ودراسة أشكال التأثيرات الأدبية المتبادلة فيما بينها. وكان الاشتغال النقدي يسعى إلى تكريس الفكرة السائدة حول أصالة كل أدب وخصوصيته، بعيداً عن علاقته بغيره من الآداب.

أفادت المدرسة الفرنسية في بلورة رؤيتها من كل هذه العوامل والظروف، غير أنَّ ذلك لم يأخذ شكلاً سريعاً؛ فقد اكتمل الأفق الجديد في العقد الثالث من القرن العشرين، إذ بلغت الدراسات التاريخية والفيلولوجية ذروتها، وقدمت الرومانسية رؤيتها ونماذجها الإبداعية التي حرصت على مد جسور العلاقة مع الآداب الأخرى ودعت إلى ذلك بشدة، فوجهت الأدباء إلى الافادة من النتاج الابداعي العالمي، وفي الوقت نفسه لفتت أنظار النقاد إلى ضرورة البحث في مرجعيات الظواهر الأدبية والكشف عن الوشائج ما بين المحلي والعام، فأصبح النقاد ينظرون إلى آداب أوربا الحديثة على أنَّها تشكِّل كلاً واحداً تظهر في أجزائه اختلافاتٌ وتشابهاتٌ جديرةٌ بالفحص والفهم. وهو ما جعل من ظهور الأدب المقارن استجابةً لضرورة وحاجة مُلحَّتين، فاتجهت الدراسات إلى البحث عن جوانب التأثير والتأثر بين الأدب الفرنسي والآداب الأخرى، والعلاقات الأدبية التي تربط فرنسا بإيطاليا أو إنجلترا أو إسبانيا.